باسم زنتوت

أبعاد الحرية

عند الساعة الرابعة فجراً انطلق رنينُ المنبِّه. تحرّك حاتم في فراشه ومدَّ يده يتحسَّس موضعَ المنبّه من الطاولة الصغيرة قرب السرير. وبعد أن توضّأ، وقف تجاه القبلة ليصلّي ركعتَيْ جوف الليل. لم يفوِّت هاتين الركعتين في أيّ ظرفٍ من الظروف لأكثر من عشر سنوات. حتى في أيّام الشتاء الباردة لم يتوانَ عن هجر فراشه لتأدية صلاته؛ فقد كان يعتبرها منعشةً للروح: «تماماً كوردة أصابتْها أشعةُ الشمس الأولى في صباح ربيعيٍّ بلّلها بحبات الندى فاهتزّت مرتعشة».

جلس حاتم بعدها يدعو ويسبِّح بانتظار صلاةَ الفجر. الشاي الداكن المحلّى بكثير من السكر هو الرفيق الدائم لجلسةِ قراءته اليوميّة الممتدةٍ من بعد صلاة الفجر حتى الساعة السابعة صباحاً، يبدأ بعدها بتهيئة نفسه للخروج إلى عمله. تناول كتاباً من مكتبته التي تَزْخر بعشرات الكتب. كانت المواضيع الدينيّة هي الغالبة على هذه المكتبة القابعة في إحدى زوايا غرفته. أضاء النور الصغير على الطاولة.

شرح جوهرة التوحيد للشيخ الباجوري [متن في العقيدة، يَشْرح أصولَها في مئةٍ وأربعة وأربعين بيتاً مقفى]. يفتتح الشيخ الباجوري أرجوزته بقوله:

فكلّ مَنْ قلَّدَ بالتوحيد إيمانَه لم يخلُ مِنْ ترديد

كان، ولم يزل، حلمُ حاتم أن يتلقَّى الناسُ أصولَ دينهم بالأدلّة العقلية والحجج المنطقيّة، فتنحسر ـ بمرّ السنين ـ الممارساتُ المتوارثة التي لا تمتّ إلى الدين بأيّ صلة. منذ فترة ليست بقصيرة بدأتْ تتجمّع في رأسه التساؤلات، وجاء كتابُ **الجوهرة** ليزيد منها.

البارحة مساءً زار حاتم صديقه «عارف»، وهو واحد من عددٍ محدودٍ جداً من معارفه. فدار نقاش بينهما حول بيتٍ أورده الشيخ في **جوهرته**:

ألم يروا إيلامه الأطفالا وشبهها فحاذر المحالا؟

ـ «هل أنت مقتنع، يا عارف، بأنّ اللّه هو المسبِّب لآلام الأطفال؟ ألا يتنافى هذا مع رحمة الله ولطفه؟» قال حاتم لصديقه.

ـ «إنّ اللّه هو الفاعل الوحيد والمطلق في هذا الكون، وهذا ما عليه علماؤنا، ومن شذَّ فقد شذَّ في النار». أجابه عارف بشيء من الحدّة.

ـ «دعك من هؤلاء وغيرهم، ودعنا نناقشْ هذا الموضوع بشكلٍ منطقيٍّ وعلميٍّ. ألم يقل الشيخ الباجوري إنّ التقليد في العقيدة لا يورث إيماناً راسخاً؟».

امتدَّ النقاش لساعتين ويزيد، ولكنّ أياً من الصديقيْن لم يستطع أن يُقْنع صديقَه برأيه. كان حاتم يرى أنّ هناك قوانين وسنناً أَوْدعها اللّهُ مخلوقاته ولا تتخلّف إلا بإذنه. قال حاتم:

ـ «لا يُعقل أن يكون اللّهُ هو الحارقَ لا النارَ، ويكون هو الذي يروي لا الماءَ».

ـ «إذا نسبتَ الإحراقَ والإرواءَ لغير اللّه، فدعني أنبِّهْك أنّ هذا نوعٌ من الشرك».

*

بداية العام الدراسي أمرٌ لم يعتدْه حاتم، على الرغم من مرور أكثر من خمس سنوات على انخراطه في سلك التعليم بعد تخرُّجه من كليّة الآداب بإجازةٍ في الأدب العربيّ. اليوم الأول يَبْعث في نفسِه المهابةَ. أكثرُ ما يَشْغل بالَه عند دخوله الصفَّ للمرّة الأولى من العام الجديد نوعٌ من التلاميذ «المتذاكين» ـ كما يحبّ أن يَصِفهم ـ الذين يتعمّدون إضحاك زملائهم بتعليقاتهم السخيفة. يَكْثر عددهُم في حصته ولاسيّما أنّ فارق العمر بينه وبينهم ليس كبيراً؛ فهو لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره. في مثل هذا اليوم تستيقظ في ذاكرته البداياتُ الأولى. فحين وافقتْ إدارةُ المدرسة على قبوله واحداً من أفراد هيئتها التعليميّة لتدريس اللُّغة العربيّة وآدابها للصفوف

الثانويّة طلب المديرُ مقابلته:

ـ «أستاذ حاتم، كل إنسانٍ حرٌّ بمعتقداته وقناعاته دون أدنى شك. ولكنْ أُحبّ أن ألفت انتباهَك إلى أنّ إطلاق اللحية مخالفٌ لقوانين المدرسة. وعلى الرغم من ذلك فإنّي لن أطلب منك أن تَحْلقها، ولكنْ على الأقلّ خفِّفْ منها لأنّ منظرها لافت للأنظار».

*

ـ «لقد طلبوا مني يا شيخنا أنْ أخفِّف من لحيتي، فما تقول في هذا؟» قال حاتم لشيخه.

ـ «النصوص واضحة في ما يتعلّق باللحية ومقدار إطالتها. ولكنْ إذا كنتَ تعتقد أنّ اللحية ستضرّ بمصلحتك فخفِّفْ منها واستغفرِ اللهَ لذلك». قالَ الشيخ بنبرةٍ جادّةٍ، وهو يداعب بأصابعه لحيتَه السوداءَ التي تكاد تلامس أعلى صدره.

حين كان حاتم في سنته الجامعيّة الثانية تعرّف إلى الشيخ بكر. واظَبَ على حضور دروسه في مختلف العلوم الدينيّة، وبرز واحداً من تلامذته النجباء. فقد استطاع أن يحفظ متنَ **الفقه الأكبر** للإمام أبي حنيفة في العقيدة، وأتمّ قراءة شرحه لملا علي القاري، في أقلّ من شهرين.

ولكنْ لم يعد حاتم يتردّد على شيخه بعد تخرّجه كما كان يفعل مِنْ قبل، وإنْ لم ينقطع عنه بالكامل، إذ راح يقصده للاستئناس برأيه في ما يستعصي عليه من المسائل الدينيّة.

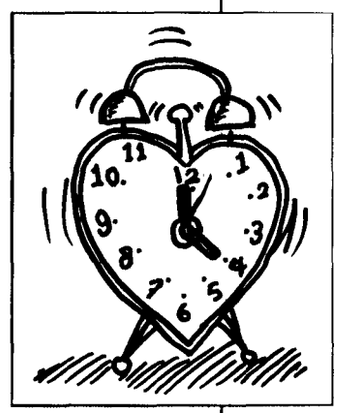

كان ذلك بعد بضعة أشهر من التحاقه بالمدرسة. دخل غرفةَ استراحة الأساتذة ليجد أنّ نقاشاً حامياً كان يدور بين معلمةٍ وبعض المعلمين.

ـ «اِسأل الشيخ»، بادرت المعلمةُ حاتماً حين تنبّهَتْ إلى دخوله.

ارتبك حاتم وشعر بالحمرة تكتسح وجهه، واستغرب اللقبَ الذي خاطبتْه به. تابعتِ المعلّمةُ قائلةً:

ـ «أستاذ حاتم، تقولون إنّ الشرع جَعَلَ للذكر ضعْفَ حظّ الأنثى في الميراث، وذلك للمسؤوليات الملقاة على عاتقه. ولكنّ المرأة في هذا العصر تَعْمل وتُعيل عائلتها، مثلها مثل الرجل. فهل يبقى الحكمُ على حاله؟».

ـ «ماذا تقصد بِـ: تقولون؟ ولماذا توجهتْ إليّ بهذا السؤال؟»، قال حاتم لنفسه، قبل أن يجيب المعلّمة قائلاً:

ـ «إنّ التشريع، الدينيّ أو غيره، يكون للعامّ ولا يأخذ حالاتٍ خاصةً بعينها. فالمتعارَفُ عليه أنّ الرجل هو الذي يَعْمل ليعول عائلته، ولذا استحقّ ضعفَ حظ الأنثى في الميراث. كما أنّ المرأة ليست مسؤولة في الشرع الإسلاميّ عن إعالة عائلتها».

بعد ظهر ذلك اليوم عاد حاتم إلى البيت ودخل غرفته مباشرةً. كان يغوص بين الكتب التي كدّسها على الطاولة حين جاء صوتُ والدته:

ـ «حاتم، ألا تريد أن تتناول طعام الغداء؟ ألا تشبع من القراءة؟ تقرأ في الصباح والمساء».

ـ «سآتي بعد قليل».

ـ «أَسرَعُ، سيبرد الطعام».

*

ـ «لقد علّمتنَا يا شيخنا أنّ الأحكام الشرعيّة معلّلة، وأنّ الحكم يزول بزوال علته ويبقى ببقائه. وعلى هذا، فإنّ تخصيصَ الذكر بضعف حظ الأنثى لمسؤولياته في الإعالة لم يعد يعنيه وحده؛ فالمرأة نزلتْ ميدان العمل وتُسهم في إعالة عائلتها هي أيضاً. فيكون تساؤلُ المعلمة فيه وجهٌ من الصحة».

حدّق الشيخ في حاتم وسادت فترةٌ من الصمت قبل أن يقول:

ـ «يجب أن تَعْلم أنّ هناك فرقاً بين العلّة والحكمة. فالعلّة وصفٌ ظاهرٌ مناسِبٌ للحكم كقوله

تعالى: ﴿ إنَّما يريدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينَكُم العداوةَ والبَغْضاءَ في الخمر والميسر ويَصُدَّكُم عن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاةِ، فهل أنتم منتهونَ﴾. فعلّة النهي عن الخمر والميسر ظاهرةٌ منصوصٌ عليها، وهي العداوة والبغضاء الناجمتان عنهما. أما الحكمة فلا يُنَصّ عليها، بل نستجليها من النصّ، وقد لا تكون هي العلّةَ الحقيقيّةَ التي أرادها الشارعُ، مع توكيدنا على وجوب تعليل الأحكام الشرعيّة».

ـ «لكنّي لا أرى فرقاً بين العلّة والحكمة. فإنّه من مقتضى الحكمة أن تُبنى الأحكامُ وفق عللها، واستجلاءُ العلّة للحكم إظهارٌ للحكمة».

ـ «يبدو أنّك لم تقرأ مباحث الأصوليّين في العلّة، وتحديداً في باب مسالك العلّة»، قال الشيخ الذي بدأتْ نبرتُه تكتسي بعض الحدّة.

ـ «بلى قرأتها».

ـ «منذ أن أخبرْتَني أنّ المَدْرسة التي التحقتَ بها مختلطةٌ لم أستبشرْ خيراً».

*

عند الساعة السابعة والنصف خرج حاتم من البيت متوجّهاً إلى المدرسة. دخل الصف ووضع حقيبته على الأرض قرب الطاولة. أرجَعَ الكرسيَّ إلى الخلف ووقف مُسنداً كفَّيْه على الطاولة.

ـ «صباح الخير. أنا حاتم فخري. سأدرِّسكم مادةَ الأدب العربيّ لهذه السنة».

جاب حاتم ببصره في وجوه التلامذة الجدد الذين بادلوه نظراتٍ متفحِّصة. هناك كانت تجلس. في الصف الثاني قرب النافذة. غسلتْ أشعةُ الشمس شعرَها الكستنائيَّ الأملس، فتلألأ بريقاً ساحراً. احتبستْ عيناها العسليّتان نظراتٍ هادئة لم تعكِّرها ابتسامتُها الخجولة، ولم تقصِّر الحمرةُ في صبغ وجنتيْها فأكسبتْ ملامحها خجلاً دائماً. بدأ التلامذة يعرِّفون عن أنفسهم الواحد تلو الآخر. «حنين» اسمُها.

عند الساعة الرابعة فجراً استفاق حاتم. جلس يقرأ بعد ركعتَيْ جوف الليل وصلاة الفجر، ولم يَنْسَ أن يُعِدَّ رفيق جلسته.

يقول الشيخ الباجوري:

فخالق لعبده وما عمل　　موفق لمن أراد أن يصل

تساءل: «أين هي الإرادة الإنسانيّة إذا كان اللّه هو الذي خلق الفعلَ الإنسانيَّ نفسه، الذي من المفترض أن يكون المرءُ مخيَّراً فيه؟ وأين الفرق بين قول الشيخ والجبريّة الذين يعتبرون أنّ الإنسان أشبهُ بريشةٍ تتقاذفها الريحُ، ليس له من الأمر شيء؟».

قام حاتم إلى النافذة. كان القمر بدراً والنجومُ تملأ السماء. حَضَرَتْه صورتُها. دغدغه شعور غامض، ولكنّه استطاع أن يبعث بريقاً في عينيْه، وأن يُجْبر شفتيْه على أن تنشقّا عن ابتسامة خفيفة. عند الساعة الثامنة صباحاً دخل الصف. لم يستطع أن يمنع نفسه خلال الحصّة من أن يختلس نظرةً باتجاهها بين الفينة والأخرى.

بعد الظهر عاد إلى البيت. دخل غرفته وجلس يقرأ. لم يكن يستوعب شيئاً مما يقرأه. كان يعيد الجملة مرتيْن وثلاثاً، ثم ينتبه إلى أنّه شرد، فيعيدها من جديد. لم تفارق صورتُها مخيّلتَه. يستعيد نظراتها وحركاتها: تَنْكُس رأسها لتكتب، فينسدل شعرُها الأملسُ حتى يكاد يلامس دفترها. ترفعه من جديدٍ لتتابع الشرح، فتعالج أصابعُها البيضاء شعرَها لتعيده خلف أذنيها.

نهض إلى مكتبته. اعتلى كرسيّاً ليسحب كتاباً في الرفّ الأعلى. منذ ثلاث سنوات اشتراه ولم يتفحّص فهرسه وحده. نَفَخَ على حدّ الكتاب، فتطاير الغبارُ عنه: **طوق الحمامة** لابن حزم الأندلسيّ.

يقول ابن حزم في باب «علامات الحب»: «وللحب علاماتٌ يَقْفُوها الفَطِنُ ويهتدي إليها الذكيُّ، فأوَّلُها إدمانُ النظر؛ والعينُ بابُ النفس وهي المنقِّبة عن سرائرها...

فليس لعيني عند غيرك موقف　　كأنّك ما يحكون من حجر البهت [حجر كريم]

أصرفها حيث انصرفتْ وكيفما　　تقلّبت كالمنعوت في النحو والنعت».

ويقول في باب «مَنْ أحب مِنْ نظرة واحدة»: «كثيراً ما يكون لصوقُ الحب بالقلب من نظرة واحدة...».

قال حاتم لنفسه: «إذا كان هذا الكلامُ هو الذي حمل بعضَ العلماء على رمي ابن حزم بالزندقة والانحراف فهو فهم خاطئ، وجمودٌ في التفكير. فابن حزم يعالج في كتابه إنسانيَّةَ الإنسانِ وطبيعتَه البشريَّة التي لا يُمْكن أحداً أن يُنْكرها».

*

دخل حاتم الصف ذاتَ صباح فوقعتْ عيناه على مقعدها الفارغ.

ـ «ألم تأت حنين اليوم؟».

أدرك حاتم تسرُّعَه في قول كلماته، ولم تَفُتْه النظراتُ والابتساماتُ التي تبادلها بعضُ الطلاب.

ـ «تشعر ببعض التوعك، فلم تستطع المجيء اليوم». أجابت إحدى التلميذات.

قبيل الغروب خرج حاتم يتمشَّى بعد أن شعر بعدم الرغبة في القراءة. فكّر في أن يزور أحدَ الأصدقاء:

ـ «سندخل في النقاشات نفسها التي بدأتُ أسأمها»، قال لنفسه.

وصلتْ به قدماه إلى الطريق البحريّ. استند إلى الحاجز الحديديّ للرصيف، وأطْلق بصره عبر الأفق. كان قرص الشمس ينحدر في الأفق راسماً من حوله لوحةً غلَبَ عليها اللونُ الأحمر. لم يعكِّر الموجُ صفوَ البحر، فبدا كوجهِ مرآةٍ عكستْ ما رسمتْه الشمسُ في نهاية هذا اليوم.

دخلتْ إلى رأسه فكرةٌ لم تراوده من قبل:

«يُمْكن المرءَ أن يحدِّق في الشمس في هذا الوقت المدةَ التي يشتهيها. ولكنّ هذا مستحيل حين تحتلّ الشمس قبة السماء منتصفَ النهار. منذ زمن طويل لم أراقبْ غروب الشمس. أشعر وكأنِّي أرى هذا المشهد للمرَّة الأولى».

توقفتْ سيارةٌ قرب الرصيف. انبعثتْ منها ألحانٌ وكلماتُ أغنية. سَرَت ارتعاشةٌ في أوصاله، واهتزّ طرباً.

«لا أدري لماذا حَرَّم بعضُ علمائنا الموسيقى. يقولون إنَّها تلهي عن ذِكْرِ اللّه. لم أفهم هذا التعليل في يوم من الأيام. إنَّ الإبداع الإنسانيّ الجادّ يَصْقل النفس ويهذِّبها».

لامستْ دائرةُ الشمس حدودَ الأفق.

«لقد دخلتْ هذه الفتاة عالمي فبثَّتْ فيه الفوضى. لكنْ على الرغم من التشتُّت الذهنيّ الذي يَعْصف بي، فإنّ شعوراً جميلاً لم أَخْبرْه من قبلُ يتملَّكني. أهو الحب؟ أراها كل يوم. أختلس النظر إليها. لا بدَّ أنَّ تلامذة الصف جميعهم لاحظوا اهتمامي بها. هل تَعْلم هي أيضاً هذا الشيء؟ هناك أمور لا بد مِنْ أخذها في الحسبان؛ فهي لا تتقيَّد بما فرضه اللّهُ عليها. ولكنْ أعتقد أنَّ الوقت مبكِّر جداً للخوض في هذا. لا بدَّ أن أعرف بدايةً كيف تشعر هي نحوي. لكنْ كيف أبدأ؟ ومن أين؟».

عند الساعة الرابعة فجراً انطلق المنبِّه. قام حاتم عن الطاولة. تناول الكتابَ واندسَّ في الفراش. قلَّبَ صفحات ديوان الشاعر نزار قباني وتابع القراءة:

«لأنِّي أحبكِ...

أَشْعر أنِّي تحرَّرتُ من كلِّ شيء

ومزَّقتُ رسمي القديم

وألغيتُ اسمي القديم

وبعثرتُ أوراقَ جنسيَّتي في الهواء.

لأنِّي أحبكِ

أدركتُ أبعاد حريَّتي...».

صيدا